مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَولِيّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

تمظهرات الآخر في كتاب (أخبار الأذكياء) لابن الجوزي المتوفى في (597هـ)

أ.م.د. أوراس نصيف جاسم[1]

[1] جامعة الكوفة/ كلية التربية الأساسية/ قسم اللغة العربية – العراق

orasn.al_rubaye@uokufa.edu.iq

الملخص. معلوم أنَّ حوارَ الحضارات، والسعي الحثيث إلى إذابة الفوارق بين أجناس البشر، وهدم الحدود الصارمة التي رسمها اعتدادُ كل أمة بموروثها الثقافي، هي غاياتٌ سامية؛ لتقبل الآخر، وإيقاف الصراعات معه على مستوى الأصعدة كافة، وكل ما يتصل به، من أجل تلاقح ثقافة هُوية الذات معه، وإغناء المجتمعات الإنسانية/ المدنية، بما يوحد القوميات المختلفة، المنضوية تحت لواء خطاب سلطوي واحد، أو عدة خطابات متجانسة. ولا يغيب عن الأذهان أن دراسة الآخر يجب أن تكون منفتحةً عليه، أسوة بالدراسات التي تهتم بالهُوية، وهذا ما أفرزته –على سبيل المثال لا الحصر– دراساتُ الأدب المقارن، التي أضاءت كثيرًا من الاتجاهات الفكرية والثقافية لبيئة بعينها، ممثَّلةً بالعادات والتقاليد التي تتخذها وسيلة للتواصل بين أفرادها وجماعاتها. وفي كتاب (أخبار الأذكياء) لابن الجوزي، نجد أن العقل العربي المتحضِّر في زمانه، قد أوشك أن يصل إلى فهم ضرورة التواصل مع الآخر، لتتشكل لديه (هُوية مزدوجة)، فيكون التعايش معه حينًا، أو التسلط عليه ومحاربته، ومحاولات مختلفة في طمس معالمه في أحايين أخرى. لذا، تشكلت صور للآخر في هذا الكتاب، فكان (آخرًا معاديًا)، و(الآخر السلطوي المنافس للسلطة/ الذات الجماعية للعرب)، و(الآخر المتسلط على الهوية الثقافية العربية)، و(الآخر المزدوج الهوية)، و(الآخر بين الثابت والمتحول في فاعليته السردية)، و(الآخر المضطَهَد)؛ لمخالفته خطاب السلطة الديني.

العدد الرابع – اذار – 2023 / March

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

الكلمات المفتاحية: سلطة النص، نسق ثقافي، الآخر، هوية مزدوجة، الآخر الديني، الثابت والمتحول، خطاب ثقافي، الذات الجماعية.

Abstract. The study of the other must be open to it, similar to studies that are concerned with identity, and this is what was produced - for example, but not limited to - studies of comparative literature, which illuminated many intellectual and cultural trends of a particular environment, represented by the customs and traditions that it takes as a means of communication between its members and groups**.** And in the book (Akhbar Al-Athkaya') by Ibn Al-Jawzi, we find that the civilized Arab mind of his time is about to reach an understanding of the necessity of communicating with the other, in order to form a "dual identity" for him, so that coexisting with him sometimes, or dominating and fighting him, and various attempts to obliterate his features At other times. Therefore, images of the ethnic other were formed in this book, and it was (the hostile other), the (the authoritarian other competing for power / the collective self of the Arabs), the (the other controlling the Arab cultural identity), the (the other with dual identity), and the (the other between the constant and transformative in its narrative efficacy)**.**

Key words: The authority of the text, a cultural system, the ethnic other, a double identity, the religious other, the fixed and transformative, a cultural discourse, the collective self.

توطئة

لا ريبَ أن "فهم الذات بشكل صحيح، ينتج عنه فهم الآخر على وفق معطيات موضوعية، وعندما يكون هناك تشويه للآخر هو من دون شك ناجم عن فهم خاطئ للذات، ولا سيما عندما تتداخل المفاهيم الخاطئة الناتجة عن مخلفات تجارب غير محسوبة الأطر، وتراكمات سلبية، وتجارب أليمة أدت إلى جرح الذات، وانعكاس ذلك على الآخر الذي ينظر إليه في المجتمعات المقهورة بالريبة والشك.." (حسن، شهاب، 2013: 246).

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

وليُعرف (الآخر) لا بد من التعريف بـ(الذات) أو (الأنا *The Ego*)، من الوجهة النفسية بأنها الذات المدركة التي تتحكم بدوافع (الهو) بما يتفق مع الواقع الاجتماعي والقيم الأخلاقية في المجتمع.. وأول خصائص (الأنا) الوعي (حيدر، 2005: 75).

أما مفهوم الآخر (*Other*)، فهو "ما يروغُ من شعورنا وتعرّفنا، وهو ما يكمن خارج عالم (ثقافتنا) وجماعتنا. فهو اللا ذات واللا نحن" (بينيت، 2010: 41)، ويعرّفه الدكتور فوزي عيسى أنه "الأجنبي المضاد للذات العربية والذي فرضت الظروف السياسية والاجتماعية والجغرافية والحضارية أن يكون هناك اتصال وتماس وعلاقات وجوار بين الطرفين" (عيسى، 2011: 5).

ولا تخلو ثقافة من الثقافات من تمثيل للذات والآخر، "فالتمثيل هو الذي يعطي للجماعة صورة ما عن نفسها، وعن الآخر، وهو الذي يصنع لهذه الجماعة معادلاً لما يسميه بول ريكور (الهُوية السردية) للجماعة" (كاظم، 2004: 16)، فإن كل الثقافات تعمل على إنتاج تمثيل الآخر، والنظرة إلى (الآخر) تتكون من خلال نظام من التمثيلات، في داخل سياقات ثقافية بعينها، يكون السياق السياسي هو المهيمن فيها والأكثر إلحاحًا، من وجهة نظر إدوارد سعيد (سعيد، 2014: 123).

ولا يغيب عن الباحثين أنه "لعل أشد ما تخشاه الثقافة الإنسانية والدراسات الثقافية هو (تنميط صورة الآخر) القائمة على التصنيف والتعميم، والتنميط لا يقف عند حدّ معين إنما يتعداه إلى المجال الاجتماعي والعقيدي والثقافي والمذهبي؛ لتأكيد صفات التراتبية الاجتماعية، وإن هذا التنميط للآخر الذي تخضع له الأفكار والأحكام... يدعو إلى العنف وثقافة اللا تسامح مع الآخرين" (الخليل، 2018: 10).

وقد عبّر القرآن الكريم، والأحاديث النبوية عن نظرة متسامحة تجاه الآخر بصورة عامة؛ وذلك مبني على التصور الإسلامي للإنسان، بوصفه أفضل المخلوقات؛ لما حباه من عقل وإرادة في التطور، فالله كرّم الإنسان، من دون تمييز في مراتب تحضّره، أو لون بشرته، أو دينه، أو لغته. وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر قوله جلّ وعلا: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيْ آدمَ وَحَمَلْنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا)) (الاسراء: 70).

ومما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: "يا أيها الناسُ، ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ. ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لعَجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا أسود على أحمرَ إلا بالتَّقوى" (الإمام أحمد بن حنبل، بلا ت.: 411).

ومما روي عن الإمام عليٍّ (عليه السلام)، حين ولّى مالكًا الأشترَ على مصر، في وصفه للرعية: "فإنهم صنفان: إما أخٌ لكَ في الدِّين وإما نظيرٌ لكَ في الخَلْقِ" (ابن أبي الحديد، 2007: 84). فهذا

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

الاشتراك– بحسب المنظور القرآني– في الحقوق والواجبات وأصل الخَلْق، لا يصلح بموجبه التفاخر والتفاضل بين أجناس البشر.

والمجتمع الإسلامي "الذي اتسم بالمسامحة والانفتاح على الآخر، لا بد من استحضار أن المادة الرئيسة لهذا المجتمع ألا وهم العرب، شركاء غيرهم من القوميات الأخرى في التفاعل الحضاري في بناء الدولة الإسلامية، القائمة على أساس التلاقح والتعاور الثقافي والاستفادة من مكونات ثقافتها الأولى، بيد أن من دخل الإسلام يحمل ثقافة ومكونات معرفية قد توارثها، ولكنها صقلت على وفق مفاهيم إسلامية بما لا يتعارض مع فكرة التوحيد، والدخول في جوانب جديدة أخرى تعزز من ثقافة المجتمع وترفده بأفكار متعددة ومتنوعة تسهم في ديمومته، وعليه فإن هذا الجانب يُعطي صورة واضحة عن مدى تقبل الإسلام للآخر، إقرار بإنسانية رسالته، كونها شاركت في انصهار ثقافات عدة لقوميات مختلفة في بوتقة الفكر الإسلامي، لتنتج عنه ثقافة شاملة وعالمية، طابعها العام الإسلام، والخاص هو فكر تلك القوميات" (حسن و شهاب، 2013: 246–247).

المرجعيات الثقافية لابن الجوزي:

للوصول إلى فَهْم واضح للأدلجة الفكرية في كتاب (أخبار الأذكياء)، لا بد من تعريف سريع بهُوية مؤلفه، عن طريق مرجعياته الثقافية كافة.

هو (ابن خلكان، بلا ت.: 140) جمال الدين الحافظ أبو الفَرَج عبدُ الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حُمّادَى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي.. ويمتد نسبه إلى الخليفة أبي بكر الصِّدّيق، وبقية النسب معروفٌ، القرشيّ التيميّ البكري البغدادي الفقيه، الفقيه الحنبلي الواعظ، ... والجَوزي نسبةً إلى جده الذي كان من مَشرعةِ الجَوز، إحدى محالِّ بغداد بالجانب الغربي، ومن المرجّح في سنة ولادته أنها (510 هـ)، وتوفي سنة (597 هـ) في بغداد، والله أعلم.

كان علّامة عصره، وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صنّف في فنون عديدة، منها: (زاد المسير في علم التفسير)، وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله (المنتظم) في التاريخ، وهو كبير، وله (الموضوعات) في الأحاديث الموضوعة، وغيرها من الكتب الكثيرة، وله أيضا أشعار كثيرة، منها مخاطبته معاتبًا أهل بغداد:

عَذِيرِيَ مِن فِتيةٍ بالعراقِ ... قلوبُهُمُ بالجَفا قُلَّبُ

يَرونَ العجيبَ كلامَ الغريبِ ... وقولَ القَريبِ فلا يُعجِبُ

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

وغُنرُهُمُ عندَ توبيخهمْ مُغَنّيَةُ الحَيِّ ما تُطرِبُ (ابن خلكان، بلا ت.: 142)

ومن الأخبار التي تدل على اعتداله النسبي في عقيدته الدينية، ومحاولته عدم انجرافه نحو التعصب لمذهبه الحنبلي، والانتصار له على بقية المذاهب الإسلامية/ السياسية، ما رواه ابن خَلِّكان: "أنه وقع النزاعُ ببغدادَ بين أهلِ السُّنّةِ والشّيعَةِ في المفاضلةِ بين أبي بكرٍ وعليّ، رضي الله عنهما، فرضيَ الكلُّ بما يجيب به الشيخُ أبو الفَرَج، فأقاما شخصًا سأله عن ذلك وهو على الكُرسي في مجلس وَعْظِه، فقال: أفضلُهما مَنْ كانت ابنتُه تحتَه، ونزلَ في الحال حتى لا يُراجَعَ في ذلك، فقالت السُّنّةُ: هو أبو بكر لأن ابنتَه عائشة... تحت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقالت الشّيعةُ: هو عليٌّ لأن فاطمةَ ابنةَ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تحته، وهذا من لطائف الأجوبة، ولو حصل بعد الفكر التام وإمعان النظر كان في غاية الحُسن فضلاً عن البديهة...

وقد اتخذ سبيل طلب العلم، ولم تلهه عنه نزوات الشباب، ولحاظ الغيد، وكان "زاهدًا في الدنيا، متقللاً منها... وما مازح أحدًا قطُّ، ولا لعب مع صبي، ولا أكل من جهةٍ لا يتيقن حلَّها" (الذهبي، 1996: 373).

من أشهر أساتيذه: أبو القاسم بن الحُصَين، وأبو عبد الله الحسين بن محمد البارع، وعليّ الدِّينوري، وأحمد بن أحمد المتوكّلي، وإسماعيل بن أبي صالح المؤذن، والفقيه أبو الحسن الزاغوني، وهبة الله بن الطَّبَر الحريري، وأبو غالب ابن البنّاء، وأبو بكر المَزْرَفِيّ، وأبو غالب الماوردي، وأبو القاسم عبد الله الأصبهانيّ الخطيب، والقاضي أبو بكر الأنصاري... وطائفة مجموعهم نيّفٌ وثمانون شيخًا (الذهبي، 1996: 366).

مما تقدم، يُلاحظ أن السياقات الاجتماعية والدينية والفكرية التي نشأ في ظلها صاحبنا، لها أثرها الفاعل فيه، فلم يتعصبّ لفكر معين، أو عقيدة بعينها– أو هكذا يبدو– على الرغم مما هو معروف عن الحنابلة من تشدد عَقَدي، فضلاً عن أن الهوية العربية/ القرشية لم تعد تمتلك زمام الخطاب السلطوي في كتب الأخبار، لأن رجالات السلطة، منذ تولي بنو العباس الحكم، إلى عصر ابن الجوزيّ (النصف الثاني من القرن السادس للهجرة)، هم من العرب ومن غير العرب، الأمر الذي جعل رعاياهم خليطًا كبيرًا من أعراق كثيرةٍ، ومتنوعة.. فرس، وترك، وأنباط، وهنود.... وهذا ما وجده البحث في تضاعيف الأخبار من الكتاب. وعليه، آثرت الباحثة التحري عن صور الآخر فيه، وتقلبات هويته الثقافية.

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

الآخر والعرِق:

العِرق في اللغة: عِرقُ كل شيء أصلُه، والجمع أعراقٌ وعُروق. ورجل مُعرق في الحسب والكرَم، أي عريقُ النسب وأصيل (ابن منظور، بلا ت.). وهو الأصل.

ويكون العِرق قومية أو أمة من خلال اتصاف جماعة من الناس بالصفات نفسها، تميزهم عن غيرهم من الأقوام. ويتميز الإنسان العربي بصفات جسمية، منها لون البشرة المائل إلى السمرة، ولون العين البني أو الأسود، وصفات خُلُقية، منها: الكرم، والشجاعة، والعفة.

ويكون الآخر العرقي/ الثقافي المقابل للهُوية العربية، هو: الرومي، والفارسي، والأحباش، والنَبط، والهنود.

وله (أي: الآخر) صور في كتاب أخبار الأذكياء هذا:

الأولى (آخر مُعادٍ)، يضع نفسه موضع المنافسة مع الهوية الثقافية لنسق السلطة: ومن تمثلاته ما أورده ابنُ الجوزي بالأسانيد، وهو أنه "أُتِيَ عمر بن الخطاب برجل من المشركين يُقال له الهُرْمُزَان، فأسلمَ، فقال: إني مُستشيرك في مغازي هذه، فأشِرْ عليّ. فقال: نعم يا أميرَ المؤمنين، الأرضُ مَثَلُها ومَثَلُ مَن فيها من الناس من عدوّ المسلمين مَثَل طائرٍ له رأسٌ وجناحان وله رجلان، فإن انكسرَ أحدُ الجناحين نهضت الرجلانِ بجناحٍ وبالرأس، وإن انكسر الجناحُ الآخر نهضت الرجلانِ والرأسُ، فإن انشدخ الرأسُ ذهبتِ الرجلان والجناحان، فالرأسُ كسرى والجناحُ قيصر والجناح الآخر فارس، فمُرِ المسلمين فلينفروا إلى كسرى" (الجوزي، 2003: 219).

مما تقدم، يشير النص المروي– وهو متناغم مع خطاب السلطة آنئذٍ – إلى أن الهُرمزان لم يُرِد أن يشتري سلامته لدى خليفة المسلمين فحسب، بل كان طامحًا إلى نيل الحظوة لديه أيضًا، بعد أن كان قائدًا للجيوش الساسانية، فنراه يفلح في إقناعه بأن الخطر الأكبر الذي يتهدد (سلطة الإسلام السياسي) هو مَلِكُ الفرس، ولعله أعطاه مبررًا كافيًا في المَثَل الذي ضربه له بـ(رأس الطائر)، وأهميته في بثّ القوة في حركة بقية أعضاء جسمه، ولم يضرب له مثلاً في رأس الأسد، أو رأس الثور، أو رأس الذئب، على الرغم مما تحمل هذه الوحوش في اللاشعور الجمعي من إشارات سيميائية في الموروث الأسطوري، لأن الطائر من خلال تحليقه، يدرك ببصره تحركات طرائده كلها، أما بقية الوحوش الأرضية فلا تدرك إلا ما يقع أمام نظرها على الأرض من الطرائد، ويغيب عنها بقية أعدائها المتربصين بها.

ثم إنها إيماءة من صاحب الخبر إلى ذكاء الهُرمزان في الإشارة إلى خطر كِسرى، وضعف مَن هم دونه، والتقليل من شأن (يَزْدَجِرْد: من أمراء فارس) وهو التهديد الحقيقي المحرِّض للهرمزان بالخفاء

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

(الذهبي، 1996: 163)، فضلاً عن استشرافه لمستقبل جيوش المسلمين الغازية ودولتهم، والراوي من جهة أخرى، يخبر القارئ أن من أهم أسباب قيام دولة وانهيار أخرى، هم خونة تلك الدول، ومتزلفو السلطة، وهنا يظهر الحسُّ القومي لدى جامع الروايات، وتتمظهر هُويته، حين يحاول القدحَ بولاء قادة كسرى وحاشيته، بفعل تعصبه لقوميته العربية، والحق يقال أن خونة السلطة هم في الأعراق البشرية كلها، فما غربت دولة الأمويين، ودولة بني العباس، وبلاد الأندلس إلا حين دبّ الوهن فيها على الأصعدة كافة، وباعها طالبو الجاه من أهلها، لمَن شروها منهم بأبخس الأثمان.

ومن صور هذا الضرب من (الآخرية المنافسة للسلطة)، ما نقله ابن الجوزي عن أكثر من نقل عنه رواة الأخبار في عصره، وهو هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 204هـ):

"قال ابنُ الكلبي: لمّا فتح عمرو بن العاص قَيْساريّةَ (البكري، بلا ت.: 1106) حتى نزل على غَزّة، فبعث إليه علجُها أن أرسلْ إلي رجلاً من أصحابك أكلّمه، ففكّر عمروٌ، فقال: ما لهذا العِلْجُ أحدٌ غيري؛ فقام حتى دخل على العلجِ، فكلّمه، فسمِعَ كلامًا لم يسمع مثلَهُ قط، فقال له العلجُ: حدّثني، هل من أصحابك أحدٌ مثلَك؟ قال: لا تسأل عن هواني عندَهم، إذ بعثوني إليك وعرّضوني لما عرّضوني، فلا يدرون ما تصنعُ بي؟ قال: فأمر له بجائزةٍ وكُسوةٍ، وبعث إلى البوّاب: إذا مرّ بك فاضربْ عنقَهُ وخذ ما معه، فمرّ برجل من النصارى من غسّان، فعرفه، فقال: يا عمرو! قد أحسنتَ الدخولَ فأحسنِ الخروجَ. فرجع، فقال له الملكُ: ما ردّك إلينا؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتني فلم أجد ذلك ليسعَ بني عمي، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تُعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عندَ عشرة خيرًا من أن يكون عند واحد، فقال: صدقتَ، عجّل بهم؛ وبعث إلى البوّاب: خَلِّ سبيلَه، فخرج عمرو وهو يتلفّت، حتى إذا أمِنَ، قال: لا عدتُ لمثلها أبدًا. فلما صالحه عمروٌ، دخل عليه العِلجُ، فقال له: أنت هو؟ فقال: على ما كان من غَدرك" (الجوزي، 2003: 62).

نجد هذا الخبر قد روي بلسان هوية الكاتب الثقافية، ومن تجلياتها: وَسْمُ الآخر/ الديني (حاكم قيسارية النصراني) وكل مَن لا يدين بالإسلام، من غير العرب بـ (العِلْج)، والعِلْجُ في اللغة هو "الرجلُ الشديد الغليظ، ... واستعلجَ الرجلُ: خرجتْ لحيته وغَلُظَ واشتدَّ وعَبُلَ بدنُه... والأنثى عِلْجَة... والعِلجُ: الكافر؛ ويقال للرجل القوي الضخم من الكُفّار: عِلْج" (ابن منظور، بلا ت.).

وبما أن العِلْجَ هو كلُّ ما استغلظَ على غيره، فكذلك عِلْجُ النصارى الذي كان (آخرًا مُعاديًا)، صعب الرضوخ إلى قادة المسلمين، فأراد هزيمتهم بالحيلة والمكر، وهو بحسب ما يومئ إليه المتن الحكائي للخبر، رجلٌ ذو دهاء وفطنة، أراد التنكيل بأهم رجالات عمرو بن العاص.

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

وهذا العِلج (القائد الروماني)، هو آخر عرقي لا تجد الهُوية الثقافية للسلطة العربية سببًا بعينه لإذابة الفوارق الثقافية بين القوميتين؛ بسبب سيطرة روح المنافسة والعداء بين الهويتين.

إلا أن هنالك (آخرًا دينيًا/ بأنوية عِرقية) في المتن الحكائي للخبر نفسه، وهو (الرجل النصراني من غسّان) – والغساسنة هم عرب نصارى من بلاد الشام– جعل منه سببًا في نجاة عمرو بن العاص؛ حين نبّه هذا الغساني عمرًا إلى أن ما يُراد به مكيدة من صنع قائد الروم في غزة.

بعبارة أخرى: إن الآخر الديني في السرديات القديمة لا يكون دائمًا معاديًا، بل قد يتناغم في اتجاهاته الفكرية مع الخطاب السلطوي السائد، وبخاصة إذا كان مشتركًا معه في العِرْق والنَسَب، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على قوة النسق الثقافي وتفوّقه على النسق الديني في العقل الجمعي للكاتب بخاصة، والعرب بعامة.

أما الصورة الأخرى للآخر الثقافي، فهو: الآخر المتسلط على الهُوية الثقافية لجامع النصوص المسؤول عن توليفها، فيكون هذا الآخر موازٍ في مكانته لكبار شخصيات عصره من الأدباء، ورجال السياسة؛ وذلك لقربه من السلطة، أو لعله السلطة بعينها، وذلك بإسهامه في صناعة خطابها الثقافي والترويج له..

ومن أشهرهم في كتاب أخبار الأذكياء: يَحيى بن خالد البَرمكيّ الفارسي المتوفى في (190هـ)، وهو أبو الفضل يحيى بن خالد، وزيرُ الخليفةِ هارونَ العباسي، ومؤدِّبه، ومربّيه، فهارون له بمنزلة الابن، ولمّا آلت الخلافة إليه قلّده أمرَه، فعلا شأنه، واشتهر يحيى بجوده، وحسن سياسته، إلى أن نكّلَ الرشيدُ بالبرامكة، فسجنه في (الرقّة) إلى أن مات (الزركلي، بلا ت.: 144). لذا فلقرب يحيى الشديد من بني العباس، كان موازيًا لهم، مندغمًا في خطابهم السلطوي وهويتهم الثقافية.

وقد أورد بعض أخباره ابنُ الجوزي، وجُلُّها تذكر فضلَهُ، وعلوَّ شأنه، وفطنته بين أهل زمانه، من خلال ما رواه عن معاصري يحيى البرمكي، ومنهم أبو جعفر المنصور: ".. وبلغَنا أنّ المنصورَ كان يجوّد رأيَ يحيى بن خالد ويُعجبُ به، وكان يقول: ولَدَ الآباءُ الأبناءَ، وولدَ خالدُ بن برْمَك آباءً" (الجوزي، 2003: 78)؛ وذلك تعبيرًا عن شدّة إعجابه برجاحة عقل يحيى، وبصيرته الثاقبة في الأمور... ولا يغضّ ابنُ الجوزي طَرْفَه عن رأي مثل هذا، وبخاصة إن كان للخليفة العباسي الثاني.

ومن خصاله السامية التي نوّه بها ابنُ الجوزي في كتابه موضوع البحث: تواضعه، وحسن معرفته لنفسه، وزهده في طلب المديح والثناء، إذ روى أن شاعرًا قال ليحيى البرمكي: "واللهِ لأنتَ أحلمُ من الأحنف. فقال: ما تَقَرَّبَ إليَّ مَن أعطاني فوقَ حقّي" (الجوزي، 2003: 78).

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

وهناك مَن كان آخرًا عِرقيًا، فغدا– بفعل تسنمه سلطة العرب وغيرهم من الإثنيات – هُويةً ثقافيةً ونسقًا سلطويًا للبلاد العربية التي يحكمها، وهو: عَضُد الدولة البويهي الديلمي الأرومة (324– 372هـ) (ابن الأثير، 1987: 327)، الذي تولّى مُلك فارس والعراق، فقد كان ملكًا مهيبًا، بارع العقل، فطينًا، شديد الذكاء، أديبًا عالمًا بفنون العربية، فضلاً عن كثرة آثاره العمرانية في البلدان التي تقع تحت لواء حكومته..

إذ روى ابن الجوزي، عن أحد المؤرخين ما نصّه "أنه بلغَ إلى عضُد الدولة خبرَ قومٍ من الأكراد يقطعون الطريقَ ويقيمون في جبال شاقّة، فلا يُقدرُ عليهم، فاستدعى أحَدَ التجار، ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان فيهما حلوى قد شِيْبَتْ بالسُمِّ وأكثرَ طِيبَها، وتُركتْ في الظروف الفاخرة، وأعطاه دنانير، وأمره أن يسيرَ مع القافلة، ويُظهِرَ أن هذه هديةً لإحدى نساء أمراء الأطراف، ففعل التاجرُ ذلك، وسار أمام القافلة، فنزلَ القومُ، وأخذوا الأمتعةَ والأموال، وانفردَ أحدُهم بالبغل، وصَعِدَ به جماعتهم إلى الجبل، وبقيَ المسافرون عراةً، فلما فتح الصندوقين وجد الحلوى يضوعُ طيبُها، ويُدهِشُ منظرُها، ويُعجِبُ ريحُها، وعلِم أنه لا يمكنه الاستئثارُ بها؛ فدعا أصحابَه؛ فرأوا ما لم يَروه أبدًا قبل ذلك، فأمعنوا في الأكل عَقِيْبَ مَجاعةٍ، فانقلبوا، فهلكوا عن آخرهم، فبادر التجارُ إلى أخْذِ أموالهم وأمتعتهم وسلاحهم، واستردّوا المأخوذَ عن آخره، فلم أسمع بأعجب من هذه المكيدةِ؛ محت أثرَ العاتين، وحصدت شوكةَ المفسدين" (الجوزي، 2003: 84). فإن عضد الدولة بذكائه، وشدة دهائه لم يتكلّف شيئًا في القضاء على زمرة قاطعي الطريق، إلا حلوى مسمومة يحملها بغل، وبضعة دنانير استأجر بهن تجارًا يقودون قافلة، لتكون طعمًا يستدرج به هؤلاء اللصوص، ولم يلجأ إلى عساكره، محملاً إياهم عناء البحث عن الهاربين والقتلة في شعاب الجبال الملتوية، وخطورة الاقتال معهم.

ومما ذكره ابن الجوزي عن فطنة عضد الدولة في ميدان علوم العربية، وسرعة بديهته في إدراك مقاصد الشعراء، ونقده لفنهم، ما رواه عن الشاعرُ السلامي أنه قال: "دخلتُ على عضد الدولة، فمدحتُه، فأجزل لي عطيتي من المال والدنانير، وبين يديه حسامٌ خُسرواني، فرآني ألحظهُ، فرمى به إليّ، وقال: خذهُ، فقلتُ: وكلُّ خيرٍ عندنا من عنده، فقال عضُدُ الدولة: ذاك أبوك، فبقيتُ متحيرًا لا أدري ما أرادَ، فجئتُ أستاذي وشرحتُ له الحال، فقال: ويحكَ! قد أخطأتَ خطيئة عظيمة، لأن هذه الكلمة لأبي نواس يصفُ كلبًا:

أنْعَتُ كلبًا أهلُهُ في كَدِّهِ
قد سَعِدَتْ جُدُودُهُم بِجَدِّهِ

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

وكُلٌ خيرٍ عندَهم مِن عِندِهِ

قال: فعُدْتُ مُتوشِّحًا بكساءٍ، فوقفتُ بين يدي المَلك، فقال: ما لَكَ؟ فقلتُ: حُمِمتُ الساعةَ، فقال: هل تعرف سببَ حُمّاك؟ قلتُ: نظرتُ في ديوان أبي نواس، فقال: لا بأسَ عليك من هذه الحُمّى؛ فسجدتُ بين يديه وانصرفتُ" (الجوزي، 2003: 85).

فهذا الخبر يفصح عن سعة معرفة عضد الدولة بشعر فحول عصره، ومَن سبقهم من شعراء مفلّقين، وشدة ولعه بفنون العربية على الرغم من عِرقه الفارسي، ولم تصدّه (آخريته) عن أن يكون شغوفًا بالأدب العربي، بل لقد فاق في ثقافته الأدبية هذه شاعرًا عربيًا كبيرًا في فنه مثل السلامي، القرَشيَّ الأصل، البغدادي المولد، ولعل ذكاءَ المعتضد، ونظرتَه الثاقبة في السياسة، هما مَن دلّه على أنّ التفقه في آداب العرب، يمكنه من معرفة نقاط ضعفهم وقوتهم، فتكون شؤونهم معه على ما يحب، وطوع بنانه.

وقد يكون هذا الآخر من القادة المقربين للخليفة، ومن الرموز القوية الممثلة للسلطة، إلا أنه أخفى عداوته، فيكون نسقًا ثقافيا منتقلاً من الثبات إلى التحول، بين التظاهر بالولاء للسلطة، ثم انتهازه فرصة ازدياد قوته، مترقبًا فرصة تسلس فيه عليه الأمور، ليقلب للخليفة ظهرَ مجنّه، ويسحب بساط السلطة من تحت قدمي ولي نعمته. ومن هؤلاء القادة (الأفشين) (ابن كثير الدمشقي، 1990: 282) من أهم قادة جيوش الخليفة المعتصم العباسي، الذي أخفى مجوسيته وتظاهر باعتناقه دين الإسلام، وقاده غروره الطامح في نيل حكومة خراسان إلى خيانة الخليفة المعتصم، فحاول تسميمه وحاشيته في مأدبة دعاهم إليها في بيته، فافتضح أمره، وحبسه المعتصم في سجن بسامراء، بعد إقراره على نفسه أمام القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي (ت 240هـ) بتهمتي الخيانة والزندقة.. وما ذُكر آنفًا يعكس للقارئ أن ما سنذكره من خبر الأفشين في كتاب أخبار ابن الجوزي، قد جاء من غير تجنٍّ أو حيادٍ عن حقيقة الأفشين، الذي دفعته (آخريته الثقافية) إلى حلم إعادة حكم عائلته لبلاد خراسان.

إذ روي أنه "كان الأفشينُ يحسُدُ أبا دُلَف (العجلي، بلا ت.: 294) ويُبغضه للفروسية والشجاعة، فاحتال عليه حتى شُهِد عليه عنده بخيانةٍ وقَتْلٍ، فأحضرَ السيّافَ، فبلغَ ابنُ أبي دؤاد، فركب مع من حضرَ من عُدوله، فدخل على الأفشين، ثم قال: إني رسول أمير المؤمنين إليك، وقد أمرك ألاّ تُحدثَ في القاسم بن عيسى حدثًا حتى تحمله إليه مُسَلَّمًا. ثم التفتَ إلى العُدول، فقال: أشهدوا أني قد أدّيتُ الرسالةَ عن أمير المؤمنين إليه؛ فلم يُقدم الأفشين عليه، وسار ابنُ أبي دؤاد إلى المعتصم، فقال: يا أميرَ المؤمنين! لقد أديتُ عنك رسالةً لم تَقُلها لي، ما أعتدُّ بعملٍ خير منها، وإني لأرجو لك الجنةَ بها؛

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

ثم أخبره الخبرَ، فصوّبَ رأيَهُ، ووجه من أحضر القاسم، فأطلقه ووهبَ له، وعنّف الأفشينَ فيما عزم عليه" (الجوزي، 2003: 103).

فالخبر يفصح عن الصراع السلطوي بين الأفشين وبقية قادة المعتصم، ومنهم أبو دلف، والقاضي المعتزلي ابن أبي دؤاد، وهو في جذوره العميقة خطاب ثقافي مضمر، لم يجرؤ الأفشين على الإفصاح عنه، لأن قوته كانت آنئذ يستمدها من الخليفة المعتصم نفسه، والذي كان يقربه إليه، ويثق فيه ثقة كبيرة، إلى أن تكشّفت الحقاق كلها أمام المعتصم، فنظر في الشكاوى والتهم الموجهة صوب الأفشين وتدينه.

وقد يكون (الآخر) عالمًا، فقيهًا، مفسّرًا، وحافظًا للقرآن، إلا أنه وقع ضحية النسق الديني/ السلطوي السائد في عصره، وهو محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ)، أحد "أئمة العلم، يُحْكَم بقوله، ويُرجَعُ إلى رأيه، وكان متفننًا في علومٍ كثيرة، وكان واحد عصره" (بن تَغري بَردي، بلا ت.: 205)، وله "مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين، لم يُقلد أحدًا، وكان ثقة في نقله، وتاريخه أصحّ التواريخ وأثبتها" (ابن خلكان، بلا ت.: 191)، وروي أن الحنابلة ظلموه، وضيقوا عليه الآفاق حتى في جنازته، ورماه جهّالهم بتهمة الإلحاد، والرفض، وقد فعلوا ذلك بتحريض من الفقيه الظاهري أبي بكر محمد داود، "حيث كان يتكلم فيه ويرميه بالعظائم وبالرفض، ولما توفي اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد وصلوا عليه بداره ودفن بها" (ابن كثير، 1990: 146-147).

إذ ذكره ابن الجوزي في أخبار كتابه هذا، بقوله: "حدثنا غلامٌ لابن مرزوق البغدادي، قال: كان مولاي مُكرمًا لي، فاشترى جاريةً وزوَّجنيها، فأحببتُها حبًّا شديدًا، وأبغضتني بغضًا شديدًا عظيمًا، وكانت تُنافرني دائمًا، وأحتملُها؛ إلى أن أضجرتني يومًا، فقلتُ لها: أنتِ طالقٌ ثلاثًا إن خاطبتِني بشيءٍ إلا خاطبتُكِ بمثله، فقد أفسدَكِ احتمالي لكِ، فقالت لي في الحال: أنت طالقٌ ثلاثًا بتاتًا، قال: فأبلَسْتُ، ولم أدرِ ما أجيبُها به خوفًا أن أقول لها مثل ما قالت فتُعْتَبرُ بذلك طالقًا مني، فأُرْشِدْتُ إلى أبي جعفر الطبري، فأخبرتُه بما جرى، فقال: أقم معها بعد أن تقول لها أنتِ طالق ثلاثًا إن أنا طلّقتُكِ، فتكون قد خاطبتَها به، فوفَّيتَ بيمينك، ولم تطلِّقها؛ ولا تعاود الأيمان" (الجوزي، 2003: 119).

ولعل سبب ورود هذا الخبر عن ابن جرير الطبري، أن ابن الجوزي (الحنبلي المذهب)، أراد –على أقل تقدير– تحري الإنصاف في أخباره حتى مع عداء الحنابلة لمحمد بن جرير، وإن كان خبره مقتضبًا، قد جاء على استحياء.

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

الخاتمة:

مما تقدم، نخلص إلى أن الآخر في كتاب (أخبار الأذكياء) لابن الجوزي، قد عكس للباحثين أن العقل العربي المتحضِّر في زمان الكاتب، قد أوشك أن يصل إلى فهم ضرورة التواصل مع الآخر، لتتشكل لديه (هُوية مزدوجة)، فيكون التعايش معه، وتقبله حينًا، أو التسلط عليه ومحاربته، ومحاولات مختلفة في طمس معالمه في أحايين أخرى. لذا، تشكلت صور للآخر الثقافي في هذا الكتاب، فكان (آخرً معاديًا)، و(الآخر السلطوي المنافس للسلطة/ الذات الجماعية للعرب)، و(الآخر المتسلط على الهوية الثقافية العربية)، و(الآخر المزدوج الهوية)، و(الآخر بين الثابت والمتحول في فاعليته السردية)، و(الآخر المضطَهَد؛ لمخالفته خطاب السلطة الديني).

المصادر

[1] القرآن الكريم.

[2] أخبار الأذكياء، تأليف جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي القُرَشي البغدادي، بعناية: بسام عبد الوهاب الجابي، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، 1424هـ – 2003م.

[3] الآخر في كتاب الأغاني، نحو نمذجة الحوار مع الآخر، د. كمال عبد الفتاح حسن، د. محمد أحمد شهاب، بحث منشور في مجلة كلية التربية الأساسية/ جامعة بابل، ع 13، أيلول 2013م.

[4] البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي (ت774هـ)، ط8، مكتبة المعارف، بيروت– لبنان، 1410هـ – 1990م.

[5] تاريخ الإسلام، وذيله، حققه: عمر عبد السلام التدمري، ط2، دار الكتاب العربي، 1410هـ – 1990م.

[6] تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، ط1، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان– الأردن، 2004م.

[7] الثقافة والامبريالية، إدوارد سعيد، تر: كمال أبو ديب، ط4، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، 2014م.

[8] دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، د. سمير الخليل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 2018م.

Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

[9] سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (ت 748هـ)، تح: د. بشار عوّاد معروف، و د. محيى هلال السرحان/ 21، مطبعة الرسالة– بيروت، 1996م.

[10] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تح: محمد إبراهيم، ط1، دار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، 1328هـ – 2007م.

[11] صورة الآخر في الشعر العربي، د. فوزي عيسى، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ط1، الكويت، 2011م.

[12] الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري (ت630هـ)، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1407هـ– 1987م.

[13] لسان العرب، لابن منظور (ت711هـ – 1311م)، مط: دار المعارف، (د. ت).

[14] مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر (د. ت).

[15] معجم الأنا، أحمد حيدر، مجلة (المعرفة) السورية، وزارة الثقافة السورية، ع 496، كانون الثاني 2005م.

[16] معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت 487هـ)، عالم الكتب– بيروت، (د. ت).

[17] معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، مفاتيح اصطلاحية جديدة، طوني بينيت وآخرون، تر: سعيد الغانمي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010م.

[18] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين يوسف بن تَغري بَردي الأتابكي (ت 874هـ)، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، (د.ت).

[19] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، (ت681هـ)، تح: د. إحسان عباس، دار صادر– بيروت. (د.ت).